الفرع الرابع

أثـر الوقـف علـى المـدارس

ظهـرت المـدارس نتـيجة للنمو العلمي، ومواكبة متطلبات العصر، والمدارس عبارة عن مؤسسات تعليمية مستقلة يختار للتدريس فيها العلماء الأكفاء وطلابها متفرغون للدراسة وطلب العلم، أُمنت لهم المصروفات والإعاشة والعلاج فضلاً عن مستلزمات الدراسة المتنوعة، كل هذا من عوائد الأوقاف وفقاً لمصارفها المحددة من قبل الواقفين.

"ففـي مجـال الإيقاف على المدارس والطلبة، فإن المساجد لم تكن مقتصرة على تعليم النـاس أمور الدين فقط بل امتدت المخصصات الوقفية إلى إنشاء مدارس متخصصة لتدريس الفقه والطب والإدارة، وأصبحت المساجد الصغيرة ملحقـة بالمـدارس بعد أن كانت المدارس هـي ذاتهـا ملحقة بالمساجد، وشمل التعليم الرجال والنساء وحتى المماليك والعبيد والإماء من النساء.

وانتشرت الثقافة بين كافة الفئات، لأن شروط الوقفيات سهَّلت لهم ذلك، ولذا نجد أن بعض هذه الفئات قد بلغ الذروة في العلم، وأصبح من كبار العلماء .

كل ذلك بسبب أن أموال الوقف، كانت تسمح لهم بالعمل والدراسة فيها.

ويثـبت "المقـري" في كـتابه "نفح الطيب" بأن أبا حيان وهو الإمام النحو الغرناطي المـشهور، كان يعيب عليه شراء الكتب، ويقول له:"الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف وإذا أردت من أحد أن يعيرني ما أجد ذلك.

ولا غرابة في ذلك فان الإهتمام بالمدارس في الحضارة العربية الإسلامية هو اهتمام منقطع النظير، حتى إن هناك أوقافاً خصصت لشراء ألواح الطلبة، وأقلامهم ومدادهم" [1].

"وفي القـرن الـسادس للهجـرة، انتشرت المدارس المستقلة والخاصة بالإنفاق على فقراء

---

(١) انظر: الوقف في الشريعة الإسلامية- زهدي يكن- ص ٤٢.

المسلمين في بلاد الإسلام حتى إن "ابن جبير" يتكلم عما شاهده من مدارس موقوفة على الأيتام واللقطـــاء وأولاد الفقـــراء، وإن هذه المدارس قد أُنشئت بالقرب من المساجد وأوقفت عليها وبقـــربها نـــوافير للمياه، لتغطي احتياجات المدارس، واحتياجات من يسكن بالقرب من هذه المدارس"[1].

لقد كان للوقف دور عظيم في حياة الأمة الإسلامية على مر تاريخها؛ حيث قام بعملية تمويل لكافة المشروعات التعليمية التي كان لها عظيم الأثر في رقي الأمة وتقدمها.

الوقف والمدرسون: -

"في صـــدر الإسلام لم يكن المدرسون، يتقاضون راتباً لقاء تدريسهم. فكان جل أهل العلم يميل إلى الزهد في تكاليف الحياة، لأن جل هدفه ينحصر في نشر العلم أو الرحلة في طلبه، وكان بعضهم يؤمن حاجاته المعيشية عن طريق امتهان عمل من الأعمال، مثل أبي حنيفة الذي كان يعمل بزازاً، وقد عُرف الكثير من أهل العلم بمهنته مثل: الزَّيات والزَّجاج والبزّار والغزّال والخيّاط والقوّاس والنبّال والنَّحاس والصبَّاغ والباقلاني والحبَّاب والخ ّابة والصيرفي والنجَّار.

وكان عبد الله بن المبارك –رحمه الله– يمارس التجارة بالرغم من زهده واعتبر من كبار التجار في عصره وكان يصل ببره العديد من العلماء، وقد عوتب فيما يفرقه من المال في البلدان دون بلـــده فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعّناهم بثوا العلم، لأمة محمد ﷺ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم وكان يشمل الفضيل بن عياض ببره فيقبل منه"[2].

"ولكـــن وبمـــرور الزمن وكثرة المدارس وابتداء إيقاف الأوقاف عليها كل ذلك جعل للمدرســـين رواتب شهرية، وكان رؤساء الكليات بالجامعة من خيرة علماء المسلمين وأكثرهم

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف- د. عبد الملك أحمد السيد- ص ٢٣٤-٢٣٥- وقائع الندوة رقم ١٦- المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب – البنك الإسلامي للتنمية-ط٢- ١٤١٥هـــ- ١٩٩٤م-جدة.

(٢) انظـــر: نـــشأة الكلـــيات- معاهد العلم عند المسلمين – جورج المقدسي- ترجمة- محمد سيد أحمد-ص ١٨٥- ١٤١٣هـــ.

سمعـــة، فاشتهرت مدارس كثيرة بشهرة من درس فيها، وكان هؤلاء العلماء يتسلمون رواتبهم من الأموال الموقوفة على هذه المدارس التي يدرسون بها، فالإمام النووي، وتقي الدين السبكي، وعماد الدين بن كثير، كانوا ممن يدرسون في دار الحديث بدمشق.

أمـــا حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين الجويني، والخطيب التبريزي، والفيروزآبادي وغيرهم فكانوا أصحاب كراسي وعمداء للمدرسة النظامية في بغداد.

أمـــا ابـــن خلدون فكان ممن يدرسون في الأزهر ثم في المدرسة القمحية وكان الشيخ نجم الـــدين الخبوشاني يدرس في المدرسة الصلاحية، وكلاهما أسسها صلاح الدين، وأوقف عليها الوقـــوف، واختلفت رواتب المدرسين بين الكثرة والقلة بحسب الإحصاء وبحسب ما اشترطه الواقفون لأوقافهم"[1].

"وقد بلغت العناية والرعاية للمدرسين، أن كثيراً من الوقفيات بلغت الرواتب في البعض منها ٦٠,٠٠٠ ستون ألف درهم، بل تجاوزته سنوياً.

كما أنه قد خصصت للمدرسين مخصصات انتقال، وللإنفاق على الخيول والبغال التي تنقلهم بين مراكز سكناهم ومراكز تدريسهم، كما يجري عليه الأمر في وقتنا الحاضر كل ذلك لأجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية في سبيل تشجيعهم على الإنتاج العلمي والفقهي، وتنمية قدرات طلابهم"[2].

"وكـــان يتم ذلك من أموال الأوقاف التي يتم وقفها على المدارس وما يلزمها والعاملين فـــيها والدارسين والمعلمين، وقد كان في السابق لا تُنشأ مدرسة إلا ويوقف من أوقافها أوقاف أخرى عليها، وبعض هذه الأوقاف يكون حول المدرسة، إن كان سوقاً أو دكاكين وقد يوقف للمدرسة مساكن أو دكاكين خارج نطاقها.

وقـــد تكون أوقاف المدرسة مزارع في ضواحي المدينة التي فيها المدرسة كما هو حال

---

(١) ســـير أعـــلام النبلاء- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- ٣٨٧/٨، ٤٤٢-ط٩ - بدون تاريخ-مؤسسة الرسالة- بيروت.

(٢) انظر: الدور الاجتماعي للوقف د. عبد الملك أحمد السيد-ص ٢٣٦-٢٣٧ .

المدرسة الغياثية البنجالية بمكة، وقف عليها مزارع في مر الظهران (وادي فاطمة) وربما تكون أوقاف المدرسة في مدينة أخرى، كالمدرسة القمحية بالقاهرة، فلها أوقاف في الفيوم من أرض مصر" [1].

"كما أن الظاهر بيبرس حرص على تأسيس أوقاف مدرسته، قبل الشروع في بنائها"[2].

نماذج من المدارس الوقفية: -

"انتشرت المدارس الوقفية في حواضر العالم الإسلامي، وقد كان جهابذة العلماء والدعاة يدرسون في تلك المدارس، فنبغ طلاب كثيرون في شتى مجالات العلم، وأصبحوا علماء بارزين، أسهموا في نشر الإسلام.

وإن هذه المدارس نشأت ابتداءً كمؤسسات وقفية، كانت تقوم مقام الجامعات في وقتنا الحاضر، والتي كانت تتولى تنشئة القدرات البشرية في مختلف فروع المعرفة الإنسانية للمجتمع الإسلامي، أو كانت تُلقّن فيها جميع المذاهب الإسلامية، إضافة إلى العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والطب، وغيرها من العلوم الأخرى، وهذه بعض نماذج للمدارس الوقفية:-

١- **المدرسة الصالحية**: بمصر أول مدرسة درست المذاهب الأربعة بمصر، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤١هـ على غرار المستنصرية ببغداد وأوقفت عليها أوقاف ضخمة" [3].

٢- **المدرسة الظاهرية**: التي أنشأها الظاهر بيبرس في القاهرة سنة ٦٢٦هـ وأوقف عليها المال وأغدق عليها مما جعلها أجمل مدرسة في مصر، وخصص لها مكتبة ضخمة تحتوي على سائر العلوم.

٣- **المدرسة المعتصمية في بغداد**، أنشأها السيدة شمس الضحى- حفيدة السلطان صلاح الدين

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية" – المقريزي - ٣/٣٦٤.

(٢) المرجع السابق ٢/٣٧٨.

(٣) المرجع السابق ٣/٣٦٤.

الأيوبي، وقد أنشأها في منطقة الأعظمية ، قرب جامع الإمام أبي حنيفة" [1].

٤-**المدرسة المنصورية** في مصر، أنشأها المنصور بن قلاوون سنة ٦٨٣هـ وتخصصت في تدريس الطب بالدرجة الأولى، وأوقف عليها و على القبة المنصورية التي هي مرصد فلكي أوقافاً واسعة من الحوانيت والأطيان.

٥- **المدرسة المسعودية** ببغداد بناها مسعود الشافعي، وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة بجانب تدريس العلوم الطبية والطب.

٦- **المدرسة الجمالية** بمصر التي أنشئت سنة ٨١١هـ وأوقفت لها الأوقاف، واحتوت على أنفس المصاحف المخطوطة، خاصة تلك التي كتبها الخطاط الشهير ابن البواب.

٧-**المدرسة الغياثية**، أو مدرسة الملك المنصور بمكة المكرمة، بناها المنصور غياث الدين إذ أنشئت في ٨١٣هـ وأوقفت عليها أموال جليلة.

٨- **المدارس الأربعة** بمكة المكرمة، التي بناها السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٧هـ وأوقفت عليها أموال طائلة لتدريس المذاهب الأربعة"[2] .

وبعد فهذه مجرد نماذج محدودة ومختصرة عن بعض المدارس الوقفية التي كان العلماء والباحثون يتصدرونها ويقومون عليها ويحكمون أمورها حسب شروط الواقف.

"وكانت دروس الفقه هي السمة البارزة في مدارس المؤسسة الوقفية بعامة، ومن هذه المدارس ما يقتصر فيها على تدريس مذهب واحد أو مذهبين، ومنها ما يدرس فيها ثلاثة مذاهب وأربعة مذاهب.

وهناك مدارس تخصصت في الحديث النبوي، ومدارس اختصت بدراسة القرآن الكريم وإن معظم الواقفين كانوا يحرصون على وجود مكتبة "خزانة كتب" في مدارسهم وعادة ما يؤمن الواقف نفسه هذه الكتب منذ تأسيسه المدرسة؛ كما هو الحال بالنسبة للمدارس الفاضلية

---

(١) أصالة حضارتنا العربية- ناجي معروف –ص ٤٦٢-ط٣-١٩٧٥م- دار الثقافة – بيروت.

(٢) انظر: المدارس الشرابية- ناجي معروف- ص ٣٩١ - بدون رقم طبع -١٩٦١م – مطبعة العاني- بغداد.

والصاحبية والظاهرية والمنصورية والحجازية وقد وقف نظام الملك على المدرسة النظامية ببغداد، أموالاً لشراء نفائس الكتب وتبعه في ذلك الخليفة الناصر العباسي.

وكان بعض العلماء يوقفون مجموعاتهم بعد وفاتهم، ووقف الكتب على المكتبات والمدارس من أظهر صور إسهام أفراد المجتمع في المؤسسة الوقفية العلمية.

والكتب التي وقفها الأفراد أكثر من أن تعد، وكانت هذه الوقفيات تكتب عادة على صفحات الأغلفة الداخلية للكتب، وهذا ما أبقاها إلى يومنا هذا، شاهداً على تضامن العامة، وتعاونهم مع فكرة الوقف العلمي.

ولم تقتصر خدمات المؤسسة العلمية الوقفية على تأمين بيوت العلم للصغار والكبار وتأمين الكتاب الذي هو أحد وسائل المعرفة.

بل إن أكثرية المدارس كانت تؤمن خدمات رعاية منسوبيها من مدرسين وطلاب، ونظراً لأهمية الرعاية المادية، فقد اشترط الواقفون في كتب الوقفية أعداداً معينة من الطلاب حتى لا تزيد أعباء المؤسسة في الإنفاق.

وكان يتم تأمين المأكل والمشرب والملبس والمسكن والتنقل لطلاب العلم والعلماء" [1] .

ولا شك أن مثل هذه الخدمات لها آثار طيبة في نفوس طلاب العلم، ومن يقومون بواجبهم في الدعوة إلى الله تعالى ممن تربوا في أحضان تلكم المؤسسات الوقفية.

وقد ساهم المسلمون في تشعب المعرفة وتطورها وفي تأليف الكتب وصناعة الورق من خلال إيقافهم العديد من الأوقاف على المكتبات، التي عرفت بعدة أسماء مثل:-

"خزانة الكتب، وبيت الكتب، ودار الكتب، ودار العلم، وبيت الحكمة، ودار القرآن، ودار الحديث، ويسرت هذه المكتبات العلم للراغبين فيه دون نفقات، وعلى مختلف مستوياته؛ حيث ساهمت الأوقاف في تعضيد أساس العلم عن طريق إيقاف هذه المكتبات والكتب مما جعل هناك استمرارية في انتشار العلم، كما أن المدارس والجامعات استلزمت أن يكون فيها

(١) الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم- أحمد بن محمد المغربي-٤٣-٤٤.

دور كتب خاصة بها مما جعل المحسنين يقفون عليها الأموال اللازمة لها، وقد احتوت هذه الدور أو الخزائن على مختلف العلوم التي صنفت حسب مواضيعها، فسَّهلت على الطلبة والباحثين.

كمـــا شمـــل الوقف نسخ المخطوطات في عصور ما قبل الطباعة، إلى الحد الذي جعل إحـــدى مكتبات القاهرة في العصر الفاطمي، تضم من تاريخ الطبري ذي المجلدات العديدة ألفاً ومائتي نسخة، كما شمل الوقف رعاية المخطوطات وحفظها وصيانتها" [1] .

"وقد انتشرت خزائن الكتب الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري لدرجة أنه قلّما توجد مدينة تخلو من كتب موقوفة، وأصبحت هذه المكتبات بما فيها من كتب وقفـــية قـــبلة لطلاب العلم، تعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي" [2] .

نماذج للمساجد والجوامع التي بها مكتبات وقفية : -

"١- جامع أبي حنيفة في بغداد.

٢-الجامع الأزهر في القاهرة.

٣-جامع نيسابور.

٤-جامع حلب.

٥-جامع أصفهان.

٦-المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

٧-الجامع الأموي في دمشق.

٨-الجامع الظاهري – جامع الظاهر بيبرس – القاهرة.

---

(١) دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجة الأمة- د. محمد عمارة ص ١٦٢- ندوة نحو دور تنموي للوقف- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- ١٩٩٣م - الكويت .

(٢) الوقـــف وبنـــية المكتـــبة العربية- د. يحيى بن محمود ساعاتي ص ١٥٧- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية-١٤٠٨هـــ- الرياض.

٩-جامع القرويين بفاس.

١٠-جامع الزيتونة في تونس.

١١-الحرم المكي.

ولأهمية الكتاب في عملية التعليم والتعلم والدعوة إلى الله تعالى، اهتم الواقفون على المدارس بتوفير أكبر قدر من الكتب المشتملة على المعارف المختلفة، حيث خصص لها جزء كبير من ريع الأوقاف ثم أخذت هذه الكتب تزداد من خلال إيقاف العديد من المحسنين، سواءً من مؤلفاتهم الخاصة أو من شرائهم للكتب وإيقافها، أو من تزويد القائمين على هذه المدارس بمبالغ لشراء ما يلزم من كتب" [١] .

ومما لا شك فيه أن المدارس الإسلامية والمساجد والجوامع، وما حفلت به من خزانات للكتب ضمت كنوز التراث، أسهمت إسهاماً كبيراً في تأهيل الدعاة إلى الله تعالى وظهر أثر ذلك في دعوتهم.

(١) الوقف وبيئة المكتبة العربية – د. يحيى محمود ساعاتي ص٧٧.